

سوسيولوجية "أسطورة أنزار" في المجتمعات الأمازيغية

The sociology of Anzar Myth in the Tamazight Societies

أ.د. فيروز بن رمضان*

جامعة يحي فارس بالمدينة (الجزائر)

benramdanefairouz@yahoo.fr

المعلومات المقال	الملخص: (لا يتجاوز 10 اسطر)
تاريخ الإرسال: 2023/03/24	إنّ للماء في المخيال الشعبي دلالات فكرية ورمزية في ذهن الإنسان البسيط، حيث يرمز للخير و الطهارة والخصوبة والنماء، مما جعله يستمدّ قدسيته ودوره البارز في دينامية الفكر الميثي الشعبي الذي يطغى عليه الإيمان بالخوارق، لتصبح الأسطورة ذات موقع راسخ في الذاكرة الجماعية، وأحد ثوابت المعتقدات الاجتماعية و بنياتها العميقة. وسنحاول في هذا المقال الحديث عن ظاهرة الاستمطار في المجتمعات الأمازيغية، بتحليل أسطورة أنزار، والطقوس التي تقام في القرى، ومدى ارتباط الماء بالخصوبة والنماء، كونه رمزا للحياة والطهارة والخلود.
تاريخ القبول: 2024/01/07	
الكلمات المفتاحية: ✓ الاستمطار ✓ أسطورة أنزار ✓ المجتمعات الأمازيغية	
Article info	Abstract : (not more than 10 Lines)
Received Accepted	<i>Water has intellectual and symbolic connotations in the popular imagination. It symbolizes goodness, purity and fertility, from which it derived its sacredness and prominent role in the dynamism of popular mythological thought. This last is dominated by belief in the supernatural, the thing that lead to the establishment of myth in the collective memory, and become one of the constants of social beliefs and their deep structures.</i> <i>In this article, we talk about the phenomenon of rain-request in Amazigh societies, by analyzing the myth of Anzar, the rituals that take place in villages, and the extent to which water is linked to fertility and growth, being a symbol of life, purity and eternity.</i>
Keywords: ✓ rain request ✓ Anzar myth ✓ Amazigh societies	

دائمين تبعا لتجدد الحياة الاجتماعية واستمرارها، فهي " فعل اجتماعي مرتبط بالجماعة (تطلبها منه أو تحفزها عليها)، ومتوارثة ومرتكزة إلى تراث يُغذيها ويدعمها، ومرتبطة بظروف المجتمع الذي تمارس فيه، ومرتبطة بالزمن والمواقيت، مثل رأس السنة الأمازيغية، عاشوراء، المولد النبوي، طقس الاستمطار في بعض المناطق وغيرها، ومتنوعة وشاملة للعالم الإنساني وفوق الإنساني كالميلاد والموت والزواج والعلاقات مع الجيران والقرية والمدينة وغيرها"².

فالوجود الإنساني يُفصح عن نفسه في العادات على اعتبار أنها السلاح الذي يواجه به أسرار الوجود ومشكلات الحياة ويدعم بها علاقاته مع مجتمعه، وهو ما سنلاحظه في طقس الاستمطار واستحضار المطر، وهي عادة شعبية موعلة في القدم، يمارسها الفرد من أجل خير الجماعة والقبيلة، وخصوصا توفير وتأمين مورد كاف من الأمطار عند إمساك السماء الذي يُهدد المزروعات بالجفاف والهلاك، فتقام المراسيم المتنوعة للتضرع إلى الآلهة أو لمن تُرجى شفاعته ابتغاء استنزال المطر والاستسقاء.

2. التاريخ الشفاهي للموروثات الشعبية:

إن التاريخ الشفوي هو التاريخ الذي يروي أبناء كل حقبة من الحقب عن حقبهم، وهو يعد مصدرا من مصادر تاريخ الأمم والشعوب في كل فترة من فتراته، إذ تظل الأحداث وحركة المجتمع محفوظة لدى أبناء الفترة التي عاصروا أحداثها، وشهدوا حركة المجتمع فيها، وعاشوها وحفظوها في صدورهم بدقائقها، وتفاعلهم مع أحداثها وتأثيرهم بها، ورسوخ هذه الأحداث وحركة المجتمع في ذاكرتهم، وتخزينها في الذاكرة كجزء من تجاربهم ومعاناتهم، وكل هذه التجارب محفوظة في الذاكرة لا تمحوها

1. مقدمة:

الموروث الشعبي بمفهومه البسيط هو خلاصة ما خلفته الأجيال السالفة للأجيال الحالية، إلا أنه مازال حيا وباقيا، أما التراث فهو الذي توقف استخدامه وأصبح في خزانة الكتب، أو حبيس المتاحف والمعارض، ومن الناحية العلمية، هو علم ثقافي قام بذاته يختص بقطاع معين من الثقافة الشعبية، ويلقي الضوء عليها من زوايا أدبية ونقدية وتاريخية وجغرافية واجتماعية ونفسية.

هذا وتستخدم مواد الموروث الشعبي والحياة الشعبية في إعادة بناء الفترات التاريخية الغابرة للأمم والشعوب والتي لا يوجد لها إلا شواهد ضئيلة متفرقة، وتستخدم أيضا "لإبراز الهوية الوطنية والقومية والكشف عن ملامحها، وهذا الموروث بشكله ومضمونه أصيل ومتجذر إلا أن فروعه تتطور وتتوسع مع مرور الزمن وينسب مختلفة، وذلك بفعل التراكم الثقافي والحضاري وتبادل التأثير والتأثير مع الثقافات والحضارات الأخرى وعناصر التغيير والحراك في الظروف الذاتية والاجتماعية لكل مجتمع"¹

تنقسم مواد الموروث الشعبي إلى:

المعتقدات والمعارف الشعبية.

الأدب الشعبي.

الثقافة المادية.

العادات والتقاليد الشعبية.

ولا يهمننا في هذا البحث إلا خوض غمار العادات والتقاليد الشعبية، كونها ظاهرة تاريخية ومعاصرة في آن واحد، وهي حقيقة من حقائق الوجود الاجتماعي التي تتعرض لتغير وتجدد

² مرسي السيد مرسي الصباغ، دراسات في الموروث الأدبي الشعبي، ص 10 بتصرف.

¹ مرسي السيد مرسي الصباغ، دراسات في الموروث الأدبي الشعبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2020، ص 9.

الأفراد الذين يُكوّنونه، و يضبطهم جسد من التقاليد والرموز تتجلى أثناء عمليات التفاعل و الضبط"⁵.

والعادة هي " ما يعتاده الإنسان، أي يعود إليه مرارا وتكرارا، حتى يصبح ديدنا، وتألّفه الأبصار لكثرة مشاهدته في حياة الناس اليومية"⁶

أما التقاليد، فهي جمع لكلمة تقليد، ومعناها أن يقلد جيل أساليب الجيل الذي سبقه ويسير عليها، إن كان ذلك في الملابس أو في السلوك والتصرفات، أو في العقائد والأعمال المختلفة التي يرثها الخلف عن السلف، بمعنى أنّ التقاليد هي ما انتقل إلى الإنسان عن آباءه وأجداده ومعلميه ومجتمعه من العقائد والعادات والعلوم وغيرها من الأعمال"⁷

3. مفهوم الأسطورة:

الأساطير في معناها اللغوي الشائع، أو الثقافي الدارج، تعني الأباطيل و الأكاذيب و الخرافات، وكل ما يناقض الواقع، أو بالأحرى ما ليس له وجود في الواقع، أما عند المتخصصين، فإنها " عقيدة لها طقوسها و شعائرها الدينية، و وظائفها الأخلاقية والاجتماعية و المعرفية عند الإنسان البدائي، و تعكس مجمل تراثه الثقافي الذي هو -آنذاك- مزيج من المعتقدات الدينية و المعارف الأولية و الفنون البدائية إبان المرحلة الأسطورية للمجتمعات القديمة، و أنها بهذا المعنى نظام فكري متكامل، استوعب -آنذاك- قلق الانسان الوجودي، وتوقه الأبدي لكشف الغوامض التي يطرحها محيطه، و الأحاجي التي يتحداها بها التنظيم الكوني المحكم الذي يتحرك ضمنه"⁸.

الليالي والأيام، ويظّلون يرؤونها في مجالسهم الخاصة كمشاهدين ومشاركين في هذه التجارب التي مرت بهم³.

و البعض من هذه الموروثات الشعبية تروي وقائع وأحداث وتفصيل دقيقة، قد لا نجدّها في التاريخ المسجّل، ولا في الوثائق الرسمية، التي تهتم بنوع معين من الأحداث وتسجله، كما لا تسجل دقائق الحياة اليومية، التي لا يهتم بها التاريخ المسجل، وبصورة خاصة حركة المجتمع والحياة الاجتماعية والعلاقات الاجتماعية بين الأفراد والأسر التي كانت تعيش في المجتمع، " ولكننا نحصل على كل ذلك من الرواية الشفوية التي نأخذها من المعاصر من أبناء الفترة الذين عاشوها، وعاشوا أحداثها، والتي تعطينا صورة تفصيلية مرسومة بريشة معبرة ودقيقة"⁴.

وبعض الأساطير المروية شفويا والتي تحمل بعض العادات والمعتقدات التي كانت سائدة في حقبة زمنية معينة، زُوِيَتْ أحداثها التاريخية من المعاصرين لها وتناقلتها الأجيال فوصلت إلينا، والشاهد عليها والمشارك فيها والحافظ لها في صدره هي الرواية المحلية التي تعطينا الصورة عن التيارات الاجتماعية والثقافية وغيرها من التيارات والتحويلات التي شهدتها المرحلة في مختلف هذه الميادين، يَعْصُ النظر عن المبالغة الشفوية التي كثيرا ما تصاحب المرويّات الشفوية عموما، وهذا ما سنحاول الوقوف عنده بالحديث عن العادات والمعتقدات التي تضمنتها أسطورة أنزار (بوغنجا)، التي تدور تعبيراتها الشفوية على أفواه الجميع وآذانهم خاصة المجتمعات الأمازيغية.

و قبل التطرق لمفهوم الأسطورة وموضوعها، نريد إدراج بعض المفاهيم الهامة من أجل فهم أدق لهذه الدراسة، فالمقصود بالمجتمع، " النسق الاجتماعي المكتف بذاته، والمستمر في البقاء بفعل قواه الخاصة، والذي يضم أعضاء من الجنسين (ذكورا وإناثا)، ومن جميع الأعمار، وبالتالي، هو نتاج التفاعل بين

⁵ أمينة الفردان، الأنتى و الموروث الثقافي القروي، دراسة إثنوجرافية في قرية بحرينية، كركان أنموذجا، الثقافة الشعبية للدراسات والبحوث و النشر، المنامة، مملكة البحرين، 2015، ص 14.

⁶ بيزيد يوسف، ماهية التراث الشعبي، مقال منشور في كتاب الموروث الشعبي وقضايا الوطن، تنسيق: بشير خلف، الرابطة الولائية للفكر والابداع، الوادي، 2006، ص 52

⁷ المرجع نفسه، ص 54.

⁸ محمد رجب النجار، من فنون الأدب الشعبي في التراث العربي، الشركة الدولية للطباعة، 2003، الجزء الأول، ص 34.

³ عمار السنحري، التاريخ الشفوي، إصدارات معهد الشارقة للتراث، الإمارات العربية، 2006، ص 15.

⁴ المرجع نفسه، ص 21.

مقدس، لأنه من صنع أو إنجاز كائنات تتمتع بقدرات عليا و عُرفت بأعمالها الخارقة" ¹¹.

4. أسطورة أنزار (بوغنجا) أو ثيسليث ب أنزار (عروس المطر):

تدخل أسطورة ثيسليث ب أنزار (عروس المطر) في إطار المرحلة التأسيسية للشعوب، وهي من أساطير الديانات الزراعية، و باعتبار مناطق الأمازيغ في الجزائر زراعية، فقد عرفت أشكالاً مختلفة من النشاطات المرتبطة بالأرض و الزراعة، والاحتفال بهذه الأسطورة، يدخل في ما يسمى بأساطير الخصوبة، وهي أسطورة متجذرة في التاريخ و التي لها علاقة بالتدين الأول الذي كان قبل ديانات التوحيد.

تحكي الأسطورة أن ملك المطر أنزار لمح شابة جميلة على ضفاف نهر، حيث كانت عاشقة للمياه، وأحبها حباً جنونياً وحينها تنازل عن كبريائه، فقرر مصارحة الفتاة بحبه لها لكنها رفضته بأدب و اعتبرت مواعدها لأنزار خيانة لأهلها وقبيلتها بالرغم من أنها أحبتّه، وبعد أن رفضته أصبح يعيش في حزن و غضب، فحبس الماء عن قبيلتها، وأصابها الجفاف ، فما كان منها إلا أن تضرعت لأنزار بالعودة إليها، وقبلت أن تكون زوجة له من أجل قبيلتها، فتزوج أنزار الفتاة وأصبحت ثيسليث ب أنزار (أي عروسة ملك المطر) ، وحملها بين ذراعيه ورجعا إلى السماء وجعلت حياته ملونة بألوان السعادة والخير، ونتج عن تلك السعادة الألوان المسماة "فوس قرح" ، فبحسب الأسطورة الأمازيغية، هي الطريق التي سلكها من الأرض نحو السماء.

تقول الأسطورة الأمازيغية ¹² :

Zik yella yiwen qqaren-as Anzar. D netta
d Agellid n ugeffur. Yera ad yay yiwet
teqcict : aggur deg genni, nettat di tmurt.
Udem-is yettak ticci ; talaba-s d afilali
asdidan.

فالأسطورة من هذه الناحية، تمثل أولى مراحل التفكير الفلسفي للإنسان، وكانت جوهر ثقافته، و أدواته في التفسير و التعليل، و أسلوبه في الكشف و المعرفة، يراها حكايات حقيقية ومقدسة، ولا يخالجه شك في حدوثها، ويؤمن بها و بدورها وتأثيرها الفعال في وجوده، كونها تبعث له الحياة في واقع أصلي، و تلبي له حاجة دينية و ثقافية عميقة، كما تستجيب إلى طموحات أخلاقية، فيها دعوة إلى الالتزام بالواجبات، والامتثال لأوامر على المستوى الاجتماعي، وفيها تعليمات خاصة بالحياة العملية.

و الأسطورة من منظور " ميرسيا إلياد **Mircea Eliade**" تروي " تاريخاً مقدساً، وتخبّر عن حدث وقع في الزمن البدئي، الأسطوري، وهو زمن البدايات العجيب، وتذكر كيف ظهرت حقيقة ما، أو كيف خرج واقع ما إلى حيّز الوجود، بفضل أعمال باهرة قامت بها كائنات حارقة عظيمة" ⁹، ومعنى ذلك أنها تنطوي على خبرة دينية حقيقية مكتملة في طقوسها وعاداتها وتقاليدها.

و يراها آخرون بأنها " تحاول أن تفسّر لنا علوم عصر ما قبل العلوم" ¹⁰، بالحديث عن الخلق و التكوين، و علة الظواهر الطبيعية، و تفسير الأسرار الخافية وراء صفات الحيوان.

و إذا كان المجال هنا لا يتسع للوقوف عند هذه الآراء الجمة التي رأت مفهوم الأسطورة بمفهوم مغاير و وجهات نظر مختلفة، فإنه لا يتسع كذلك لعرض التعريفات المتعددة للأساطير و تنوعها و تعدد وظائفها، وما يهمنا هو أحد المفاهيم الذي يخدم لب الموضوع، ذلك الذي يقول عن الأسطورة، أنها تروي قصة وجود ما، أو بالأحرى " سرد لعملية خلق حدثت في التاريخ البدئي أو عصر التكوين الذي هو دائما، تاريخ إلهي

⁹ إلياد ميرسيا، مظاهر الأسطورة، تر: خياطة، نجاد، دار كنعان للدراسات

والنشر، ط 01، دمشق، 1991، ص 21-22

¹⁰ رشدي صالح، الفنون الشعبية، مطبعة دار القلم، القاهرة، 1961، ص

¹¹ محمد رجب النجار، من فنون الأدب الشعبي في التراث العربي، ص 38.

¹² بذاك شاحبة، نماذج من الثقافة الفولكلورية للمجتمع الأمازيغي، دار الأمل

للطباعة والنشر والتوزيع، تيزي وزو، 2012، ص 133-134.

ترجمة الأسطورة¹³:

كان في قديم الزمان شخص يدعى أنزار، وهو ملك المطر، وكان يريد الزواج من أجمل فتاة على وجه الأرض، بحيث تلمع في كل مكان في نفس الوقت الذي يلمع فيه القمر في السماء، وكان من عادة هذه الفتاة الاغتسال والاستحمام في الواد الفضي، وعند نزول أنزار تحرب الفتاة منه خائفة، فيعود هو إلى السماوات.

وذات مرة استطاع أن يمسكها ويقول لها:

ها أنا ذا أشق عنان السماء
من أجلك يا نجمة بين النجوم
فامنحيني شيئاً من ذلك الكنز
وإلا قطعت عليك الماء.

فردت عليه الفتاة:

أتوسّل إليك يا ملك المطر
يا مرصع الجبهة بالمرجان
أنا ملّكُ لك، وإليك نُدرثُ
لكيّ أخشى من الأفواه والأقوابل.

وما إن سمعها ملك المطر "أنزار" حتى ثارت ثائرتة، وأمر المطر أن يتوقّف بعد أن أدار خاتمته، لينضب التّهر على الفور، وتجف الآبار والوديان، فصرخت الفتاة عاليا سمعتها سائر مخلوقات الأرض، وتفجّرت عينها بالدموع، فالماء هو روحها وروح سائر الكائنات، فإذا تنزع الثوب الحريري الذي كانت ترتديه و المجوهرات التي كانت تحملها، وظلّت عارية تنادي و تتضرّع لملك المطر "أنزار" وبل تتوسّل إليه قائلة:

يا ملك المطر، يا ملك المطر
يا زهرة السهول
أعد إلى النهر جريانه
وتعال لتأخذ بئارك

Taqcict-agi mi ara d tenkker tecucuf deg yiwen wasif, aman-is d imzarfen. Akken ara d-yuder Ugellid-nni ugeffur ar tmurt yer teqcict-nni, nettat tettaḡwad, dya ad yuyal.

Almi d yiwen wass yenna yas:

- Aqli gezmey-d igenwan,
- a yiwen n yitran ;
- efk-iyi akeḡud im fkan,
- ney am kksey aman

Terra yas teqcict :

- S yixf-ik, ay Agellid n waman,
- a bubandu n uluban,
- nekk i keč iwumi yid fkan,
- mikni ugʷadey i imennan

Dya yenkker fellas Ugellid-nni n waman, yebrem taxatemt tetteurey. Dya yeqqel wasif-nni d ayyeryar ; Agellid iyab.

Taqcict tuywas, rruḡ-is d aman : tettru, tettru. Temmey tekkes talaba-nni n leḡrir, teqqim t̄arit. Tessawal ar igenni :

- Ay Anzar, ay Anzar,
- ay ajeḡḡig uzayar ;
- asif err-as leinser,
- ruḡ ad t-err-d ttar

Dya cwit kan akka twala ifetiwey d ameqqran, yeqqel Ugellid-nni n lehwa. Iger taqcict-nni g iri-is. Asif-nni yeqqel akken yella ; tzezew ak tmurt. Dya teqqim d akken tisirit. Ticki yemmey uyeryar ad nebder mebla leedil Anzar. D aymi tettekkes teqcict earyan ad astini teqcict nnii txilek qquyi iwakken ad ggagh agrud skecmiyi abbouchik gher uheccun iw akid ggagh agrud yetemchabi yak

¹³ بذاك شاحجة، نماذج من الثقافة الفولكلورية للمجتمع الأمازيغي، ص 132-

وسائر الأطعمة والأرزاق وغيرها من الفطائر القبائلية، كما تُرشُّ المرأة القافلة بقطرات من الماء على سبيل أن تذرف السماء مطرا مدرارا ينزل على الأرض. ومن بين الأهازيج التي تردد أثناء المسيرة¹⁶:

أنزار أنزار

يا رب ارزقنا الأمطار

وأثناء ممارسة الطقس يتهج الجميع، لأنّ الإله "أنزار" نفسه سعيد بما قدّمت له الجماعة من تكريم وتبجيل وتزويجه - ولو بطريقة رمزية- بأجمل عذارى القرية، وحينما تطوف المسيرة عبر أرجاء القرية يتمّ رشّها بالماء، كما يقدم الأهالي مجموعة من الأطعمة لتجمع وتوضع في أكياس مخصّصة لذلك¹⁷، وتردّد العجوز القائدة والمحنّكة أشعارا وتعيد أداءها للنساء الأخريات إذ يقلن:

إله الغيث، يا إله الغيث

أيّها الإله أبعده علينا القحط

ودع محصولنا ينمو في الجبال

وزد منتوجنا الذي في السهول¹⁸.

وعلى مقربة من "ضريح الولي الصالح" سيدي أحمد أو صالح" والذي يقع في أسفل القرية على تلّ صغير، يصل الموكب ويجد الأهالي الذين قاموا بتهيئة الطّعام المتحصل عليه أما العجوز الحكيمة، فتجرد الفتاة من الألبسة والمجوهرات التي كانت قد ألبستها إيّاها، ثم تلقّها عارية بإحدى الشبكات المستخدمة لنقل ضمات السنابل والعلف وهذا الطّقس يدلّ على أنّه لم يعد هناك في الأرض أثر لعشب أخضر، وتطوف الفتاة وعليها العلف حول ضريح الولي الصالح سبعة مرّات، كما تدور حول عين الماء الجافة سبع مرّات أيضا وهي تمسك

وفي تلك اللحظة، نزل أنزار ملك المطر تحت مظهر الضوء والنور القوي، وضم الفتاة إلى صدره، فعاد الواد إلى مجراه الطبيعي، واكتست البرية الاخضرار والجمال.

5. العادة والمعتقد في أسطورة أنزار ملك المطر:

تتناول الأسطورة قضية الطقوس والممارسات الدينية الخاصة بالمجتمع الأمازيغي، ففي حالة الجفاف، و حينما يدوم طويلا إلى درجة يهدّد بها حياة البشر، بعدما أتلّف المزروعات وأهلك الحيوانات وجعل الأرض قاحلة، يجتمع أهالي القرية في ساحة كبيرة خاصة منهم النساء والأطفال، ويجهزون للقيام بطقوس الاستسقاء والاستمطار، "وتقوم سيّدة مسنّة من أهالي القرية لديها خبرة طويلة في الممارسات الطقسية، وتحظى بالهيبه والحبّ والتقدير بين قومها باختيار أجمل فتيات القرية، وتزيّنها بأحلى المجوهرات الفضية، وتلبسها أفخر الملابس الحريرية، وتضع عليها اللّحاف ليتهدّل من على رأسها حتى يصل إلى أطرافها، وكأثما عروس ويطلق على هذه العروس المصطنعة اسم: "ئيسليث ب" أنزار" والتي سوف تزف ولو بطريقة رمزية إلى إله المطر "أنزار" وتسلمها العجوز مغرافا كبيرا أو ما يُعرف باسم: "أغنّجا" ، وتنقل المسيرة وعلى رأسها العروس التي امتطت بغلا حول القرية، وطيلة الطريق تردّد العروس وخلفها النساء مجموعة من الأدعية على شكل أشعار تتعالى هنا وهناك مطالبة بتدخل الإله "أنزار" في سبيل سقي الأرض بعد جفاف قد طال أمده"¹⁴، ومن بين المرددات¹⁵:

أنزار، أنزار

يا ملك المطر أوقف الجفاف

ولينضج القمح على الجبال

وفي السهول والهضاب

ويمرّ الموكب على بيوت القرية لتقوم صاحبه بتقديم وإهداء مختلف الأطعمة كالحليب والقمح والدقيق والخبز والكسكسي

¹⁶ حويلي، نبيل، منظمة الفكر الأسطوري في منطقة القبائل، دراسة انتروبولوجية، ص369

¹⁷ حويلي، نبيل، منظمة الفكر الأسطوري في منطقة القبائل، دراسة

انتروبولوجية، ص370

¹⁸ بذاك شابجة، نماذج من الثقافة الفولكلورية للمجتمع الأمازيغي، ص 60-

¹⁴ حويلي نبيل، منظمة الفكر الأسطوري في منطقة القبائل، دراسة انتروبولوجية، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه علوم، قسم اللغة العربية، كلية الآداب واللغات، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، 2016، ص368

¹⁵ بذاك شابجة، نماذج من الثقافة الفولكلورية للمجتمع الأمازيغي، ص 58.

السكان بعد منتصف النهار من رأس السنة طقس «تيسليت ن واسيف» (أي عروس النهر) حيث تختار أجمل بنات القبيلة، لتقوم بقطع الوادي خمس مرات وشعرها مكشوف، يرافقها الناس بدعوات للاستمطار، وتصدر الإشارة إلى أن النساء في نواحي أكادير بجنوب المغرب كن يذهبن في الماضي أثناء الجفاف إلى ضفة واد سوس، وهن يرصدن الأهازيج، ويتجردن من ثيابهن، ويظللن عاريات، حيث يحاولن استثارة المطر، فهن بذلك يعشن طقسيا الأسطورة، ويكررن فعلا أسطوريا قامت به عروس المطر المستحمة في النهر عارية في الأسطورة، حيث أثارت غريزة الملك أنزار الذي أغدق عليها من سائله، فاحضرت الأرض. إنهن يتخلصن بالأسطورة المستبطنة، وعن غير وعي، من الزمن الكرونولوجي، ويستعدن الزمن الأسطوري الذي جرى فيه الحدث البدئي: أي الزمن الأسطوري المقدس²¹.

أما في بجاية، وبالتحديد منطقة خراطة، فيقام طقس الاستمطار بعد القحط والجفاف الذي يصيب المنطقة، "فيتفقون فيما بينهم على ممارسة العمل الجماعي الخيري المتمثل في (لوزيعة*)، و أما العجائز والامهات فيأمرن الأطفال بطلب المطر من المولى عزوجل من خلال ممارسة طقس الاستسقاء أنزار، ويمارس هذا الطقس في الخريف والربيع، "حيث تأخذ العجوز أو الأم مغرفة كبيرة (أَعْنَجَا)، فتلبسها ملابس النساء وتزينها بالحلي فتجعلها على شكل دمية جميلة تشبه العروس، ويفضّل في بعض الأرياف أن يكون ذلك اللباس باللونين الأبيض و الأسود، وبعد الانتهاء من تزيينها تُحمل في بعض

المغراف بكلتا يديها وهو منحني نحو الأمام¹⁹، وترافقها العجوز وهما يردّدان وبالتناوب المقطع الموالي:

أيا أسياد المياه، قدّموا لنا الماء
لقد وهبنا روحنا لمن أرادها.

وعند انتهاء طقس الاستمطار تجتمع النساء والفتيات وحتى الأطفال، ويقمن بحلقة الأورار* بحيث تقوم العجائز بافتتاح الحلقة وذلك بحركات طفيفة بحيث يسرن نحو الأمام ويعدن إلى الخلف، وتضع كل واحدة منهن يديها على الأكتاف الأخرى وينشدن الافتتاحية ويقولن: "أنصلي أف أنبي أورار أف ذ أسعدي"، بمعنى: "نصلي على النبي، هذا الأورار مبارك"، ثم تأتي خلفهن عجوزان أخريان لتعيدا أشعار الافتتاحية، وتتقدّم الفتيات وعلى رأسهن العروس/الفتاة التي ممّلت دور العروس التي رُقت للملك المطر، ويمجّرد حضورهن تقول العجائز: "زَرَعْمَتْ أَثْحَدِيْن"، بمعنى: "ازرعن يا فتيات فلقد جاء دوركن لأداء مكانم الرقص وأداء الأورار"، ويحوي هذا الكلام على دلالات عميقة، فالعجائز يدركن أن كبر السن قد استحوذ عليهن، ولكنهن وعلى الرّغم من ذلك فهن يمثّلن الركيزة الأساس في المجتمعات الأمازيغية - وغير الأمازيغية- نظرا لخبرتهن ومعرفتهن لأُمور الدنيا²⁰.

ونفس الأحداث تجري في بلاد المغرب، حيث تعتمد مناطق فيه إلى "توظيف فتاة حقيقية في شعائر الاستمطار، كما هو الحال في إيساكن بجنوب المغرب مثلا، حيث يتم الاستعاضة عن المغرفة بما تمثله أي صببية يتيمة يتم التجوال بها منسدلة الشعر، ومقيدة اليدين خلف ظهرها إذ تتقدم بها النساء مرددات: أمان، أمان أونزار أي الماء، ماء المطر، وتعملن على إبكائها كما بكت العروس في الأسطورة لاستثارة المطر (أنزار)، وفي منطقة تاجمليت، وهي منطقة جبلية بمجل بويبلادن التابعة لفيدرالية قبائل أيت جليداسن بوسط المغرب يؤدي

21 محمد أوسوس، طقوس الاستمطار الأمازيغية(البربرية) وأساطيرها بشمال أفريقيا، مجلة الثقافة الشعبية، السنة الرابعة، العدد 14، البحرين، 2011، ص 85.

* لوزيعة هي عمل جماعي يتمثل في شراء ثيران كثيرة حسب عدد أهالي القرية، فيتم ذبحها وتوزيع لحومها بالتساوي على كل أهالي المنطقة، بهدف الوحدة والتضامن بين أفراد تلك القرية.

19 حويلي نبيل، منظمة الفكر الأسطوري في منطقة القبائل، دراسة انثروبولوجية، ص 369

* الحفلة التي تقيمها النسوة فيما بينهن.

20 المرجع نفسه، ص 371

القدر بواسطة تاغنجا (المغرفة الكبيرة التي تم رفعها في مسيرة الأطفال)، فيأكلون جميعاً، وكل عابر سبيل مرّ من تلك الناحية للبركة، وبعدها ينصرفون إلى عملهم ومنازلهم وكلهم أمل في نزول الأمطار²⁵

7. خلفيات أسطورة أنزار:

يمكن اعتبار المغرفة (تاغنجا) التي تزيّن كالعروس الحقيقية التي تنتظر زوجها، رمزا تلميحيا لعروس أنزار (ثيسليث ب انزار)، حيث التواصل الذي تمّ بين الفتاة الجميلة وملك الأمطار أنزار في الأسطورة الأمازيغية، أدى إلى خصوبة الأرض واخضرارها، وكأنا عطاء الأرض (ثيسليث ب انزار) متوقف على عطاء السماء (انزار).

إن طقوس تاغنجا "تجمع العراء المهيج ورمز المغرفة الحاوية، وهو أمر يمكننا من إلقاء الضوء على جانب من أسباب اختيار المغرفة الخشبية (أغنجا) لأداء هذه الطقوس، فحضور هذه المغرفة في طقوس الاستمطار بشمال أفريقيا يعتبر كثيفا وكاسحا، وتوظيفها قد يعود إلى كونها أداة مطبخية، مقعّرة ومجوّفة، ووعائية بطبعها، وبالتالي أنوثية، وبالنظر إلى صلتها الجوهرية بالسوائل، فهي تستعمل لاغتراف الماء أو المرق أو غيره، أو لسقي الكسكس، وتأديتها لفعل السقي قد يبرر استخدامها في الاستمطار"²⁶.

6. سوسولوجية الأسطورة في المجتمع الأمازيغي:

رغم قدم طقس أنزار لطلب الاستسقاء، إلا أنه لا يزال يُمارس في بعض قرى المجتمعات الأمازيغية، كلما دعت الحاجة إلى ذلك، فهو من الطقوس الحية، التي لا تزال تُمارس بطريقة سطحية شكلية، باعتبارها تقرّبهم من الله تعالى، ليرفع عنهم بلاء القحط والجفاف.

فقبل ممارسة طقس أنزار، يقوم أفراد المجتمع بسلوك جمعي تضامني وهو لوزيعة، والغاية منه تماسك الأفراد وتلاحمهم

المناطق من قبل البنت اليتيمة، أو تُعطى لطفل صغير من أطفال التظاهرة الشعبية"²²

يبدأ الأطفال عملهم بكل جدية، وكلهم فرح وأمل بنزول المطر، يتقدّمهم حامل المغرفة (الدمية)، وأثناء المشي يردّدون نشيدهم الفلكلوري أنزار:

أنزار أنزار

يارب ارزقنا الأمطار

المغرفة ساخنة

فوق بيت ساخن

يارب اروبها جيدا

ماء، ماء السماء²³

عند وصول الأطفال إلى بيتٍ مُعيّن، يقفون أمام عتبة البيت، ويغنون أغنياتهم الشعبية بصوت مرتفع حتى يسمعهم أهل البيت، فتخرج إليهم الجدة، والفرح يملاً قلبها، وقارورة المياه بين يديها، فتلقي عليهم التحية، وتبدأ أولاً برش المغرفة بالماء حتى تبتلّ، ثم ترشّ الأطفال جميعاً، وكأنه مطر ينهمر عليهم جميعاً، وتقول: من أجل وجوهكم سيرزقنا الله بالغيث ان شاء الله، ثم تذهب إلى المطبخ لتحضر لهم ما تملكه من مدخرات كاللحم والبقول والعدس والحمص والزيت والسميد والخضر وغيرها من المواد الغذائية²⁴.

يواصل الأطفال عملهم حتى يجمعوا ما يكفيهم من المستلزمات الغذائية، فيجتمعون في مكان معين عند النهر أو قرب المسجد، فيذهب الرجال إلى الخلاء لجمع الحطب، بينما تبقى الفتيات في المكان المختار، يحضرن الكسكسي مع إحدى العجائز والأمهات المحبات للخير ولفعل الخير، فيصنعون الفطائر، وبعد نضج الكسكسي ومرقه، تذهب الفتيات لإحضار الصحن والملاعق من أقرب دار، فيتم إخراج المرق من

²² شهيرة بوخوف، طقس أنزار في منطقة خراطة (بجاية)، مقارنة أنثولوجية، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، تيزي وزو، د س، ص 60.

²³ المرجع نفسه، ص 60

²⁴ شهيرة بوخوف، طقس أنزار في منطقة خراطة (بجاية)، مقارنة أنثولوجية،

ص 61 بتصرف.

²⁵ شهيرة بوخوف، طقس أنزار في منطقة خراطة (بجاية)، مقارنة أنثولوجية،

ص 62.

²⁶ محمد أوسوس، طقوس الاستمطار الأمازيغية (البربرية) وأساطيرها بشمال

أفريقيا، ص 92.

إلى منزل الزوجية، وهي دلالة على طقس من طقوس العبور، ذلك "أنّ طقوس الزواج والسلوك الجنسي للبشر تصبح ذات بنية كونية لأنّها وبالضرورة تعيد إنتاج الزواج المقدّس، وتحديد اتحاد السماء (ممثلة بإله المطر "أنزار") والأرض هذه التي تمثلها الفتاة الحسنة، ويتمهي الزوج والزوجة بكلّ من السماء والأرض فيصير العريس سماويا والعروس أرضية وهو الأمر الذي يقودنا إلى فهم بعض الممارسات الطقوسية التي تُمارس أثناء حفل الزفاف" ³⁰ كرشّ العروس بقطرات من الماء، أو تشريبها إياها حينما تخرج من بيت أهلها، أو وضع قدمها فيه وذلك حين دخولها بيتها الجديد، "وأيضاً اصطحابها إلى عين الماء في اليوم الثاني من زواجها أو السابع منه حسب بعض المناطق وأيضاً هناك من العرائس من تستحمّ أياً ما قليلة قبيل زفافها. وحينما نعود إلى الممارسات نجد أنّه يمثل ما تُرشّ العروس في عادات وطقوس الزفاف، فإنه يتمّ رشّ العروس الرمزية التي سيّخذها الإله "أنزار" زوجة له، وهذا أثناء مرور موكب عروس المطر على بيوت القرية وتندرج هذه المعطيات والأمثلة في نفس نسق الخصوبة والإحياء مع طقوس الاستمطار، فرشّ العروس يهدف إلى إخصاب العرائس والأرض معا" ³¹.

8. خاتمة:

وفي الختام نخلص إلى أنّ الماء في المخيال الثقافي الشعبي للمجتمعات الأمازيغية، قد شكّل صورة من العلاقات الرابطة بينه وبين الممارسات الاجتماعية المتعددة، وتجلّت هذه الصورة في مختلف المعتقدات بقديسية الماء، وأسطورة أنزار واحدة من بين الأساطير التي شهدت قداسة الماء من خلال علاقتها الحميمية بالأرض، والخصوبة والنماء، يستجيب للعديد من المزايا الروحية التي يسعى الإنسان إلى تحقيقها، وخاصة العلاقات

من جهة ²⁷، بتضامنهم في تحقيق المصلحة العامة للمجتمع، بناء على الهوية والقيم والأهداف المشتركة، ومن جهة أخرى، ضمان المجتمع للأفراد الرفاهية من خلال المساواة في توفير الفرص والبعد عن جميع أشكال التهميش. وتكمن أهمية التلاحم المجتمعي في منظومة القيم التي يخلقها المجتمع، والتي تضمن تعاون الأفراد والمجتمع لتحقيق المصلحة العامة للجميع والسيطرة على التحديات الأمنية والاقتصادية والاجتماعية.

أما فيما يخص تلك "المواد الغذائية التي جمعت عن طريق الموكب، والتي ترمز إلى التلاحم والتعاون والتآخي بين سكان القرية، فتوجّه إلى نساء أخريات مهنتهن تحضير مائدة الغداء أو العشاء، التي تدخل ضمن الحلقات الطقوسية المشكّلة لأسطورة أنزار، وتقام هذه العادة قرب مجرى الوادي أو المسجد" ²⁸.

يتكوّن تشكيل الموكب من أفراد المجتمع، نساء ورجال وأطفال، فالتفاوت في أعمارهم" دليل على علاقة الاحترام التي تميز هذه المجموعة، وعلاقتهم هذه تمثل وحدة جماعية فعلية" ²⁹.

للماء قوة سحرية عظيمة في أذهان المجتمعات الأمازيغية ومعتقداتهم، فهو رمز للخصوبة، ورمز لمسح الخطايا والذنوب المرتكبة، وبكاء الطبيعة وتجهّمها على الميت وحسرة على فقدانه، ورمزا للثراء، وشفاء من كل الأمراض، ونقاء للأرض ونظافة وتطهير لها من كل النجاسات، كما يساعد العذراوات على الزواج، واسترسال شعورهن، وغيرها من المعتقدات التي تمارس حسب الطقوس الخاصة بالماء في كل مناسبة من مناسبات دورات الحياة.

ومن بين الممارسات المرتبطة بقداسة الماء في المجتمعات الأمازيغية، عادة رشّ العروس بالماء إثر خروجها من منزل الأبوة

²⁷ شهيرة بوخوف، طقس أنزار في منطقة خراطة (بجاية)، مقارنة أنثولوجية، ص

²⁸ سالم بن لباد، سوسيوولوجية الأسطورة الأمازيغية في الجزائر، أنزار طقس

الاستمطار أمودجا، مجلة الكلم، العدد الثاني، 2016، ص 173

²⁹ سالم بن لباد، سوسيوولوجية الأسطورة الأمازيغية في الجزائر، أنزار طقس

الاستمطار أمودجا، ص 174.

³⁰ محمّد أوسوس، طقوس الاستمطار الأمازيغية (البربرية) وأساطيرها بشمال أفريقيا، ص 18.

³¹ حويلي نبيل، منظمة الفكر الأسطوري في منطقة القبائل، دراسة

انثروبولوجية، ص 381

- الروحية والعاطفية بين أفراد المجتمع، وروح التعاون والتآخي والتآزر أثناء الأزمات.
- 9. قائمة المصادر والمراجع:**
1. مرسي السيد مرسي الصباغ، دراسات في الموروث الأدبي الشعبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2020.
 2. عمار السنجري، التاريخ الشفوي، إصدارات معهد الشارقة للتراث، الإمارات العربية، 2006.
 3. أمينة الفردان، الأنثى و الموروث الثقافي القروي، دراسة إثنوجرافية في قرية بحرينية، مركزان أتمودجا، الثقافة الشعبية للدراسات والبحوث و النشر، المنامة، مملكة البحرين، 2015.
 4. بيزيد يوسف، ماهية التراث الشعبي، مقال منشور في كتاب الموروث الشعبي وقضايا الوطن، تنسيق: بشير خلف، الرابطة الولائية للفكر والابداع، الوادي، 2006.
 5. محمد رجب النجار، من فنون الأدب الشعبي في التراث العربي، الشركة الدولية للطباعة، 2003، الجزء الأول.
6. إلياد ميرسيا، مظاهر الأسطورة، تر: خياطة، نهاد، دار كنعان للدراسات والنشر، ط 01، دمشق، 1991.
 7. رشدي صالح، الفنون الشعبية، مطبعة دار القلم، القاهرة، 1961.
 8. بدك شايحة، نماذج من الثقافة الفولكلورية للمجتمع الأمازيغي، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، تيزي وزو، 2012.
 9. حويلي نبيل، منظمة الفكر الأسطوري في منطقة القبائل، دراسة انتروبولوجية، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه علوم، قسم اللغة العربية، كلية الآداب واللغات، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، 2016.